

لا حراك في الليل

قصة بقلم احمد سويد

ويتناهى الى سمعه صدى سعال بعيد ، فيعني ابراهيم بكل جوارحه ، ولكنه لا يلبث ان يغمغم بشي من المرارة :
- لا ... انه ليس هو .

سعال ابيه جاف ، في جرسه قرقصة عظام ، واصداء كبرياء لا تقهر . اما هذا الذي سمع ، فلزج رطب ، توحى البصقة التي اعقبتة ان صاحبه تعود ان يمارس « حين يبصق ، عملية كحت ، يطرح بواسطتها بعض اقذاره الداخلية ، ثم يرمي بهذه الاقذار في وجه الدنيا بتحد ووقاحة . انه بلا شك ، واحد من هؤلاء الكلاب الذين ينطلقون في الليل بوجوههم اللثيمة التي تظل دوما منقبضة الاسارير ، مشدودة العضلات ، كانها انما تعاني ابدا من امسك مزمن لا شفاء منه ولا دواء له . واحد من عسس العدو الذين يحتشدون ، تحت جنح الظلام ، عند الجانب الاخر من اسلاك العار ، يترصدون ويرقبون .

وكز على اسنانه من الفيظ ، ولعن في سره اولئك الذين احنوا رقابهم ، ووافقوا على الهدنة ، فاتاحوا للكلاب ان تشرح بامان وان تقيم اسوار اللل بينه وبين ابيه .

وتعود اجفنه المعدنية فتنفرز في السقف من جديد ويظل عليه ابوه ، وهو يعود الى القرية ذات اصيل ، وقد طالت لحيته ، وتكثفت ونكست بندقيته رأسها بمغلة ، ولاحت في جبهته آثار جرح عميق لما يلتئم بعد ، فيتخلق حوله اهل القرية يسألونه عن الاخبار ، وعن الاسباب التي حملت العرب على قبول الهدنة ، فلا يجيب « بل يكفي بين الفينة والفينة ، بتصعيد زفرة ، وببصقة ينفذها في الهواء بكثير من التفزز والقرق :
- تفوه عليهم .

فينكس الجميع رؤوسهم ، ويحدقون في الارض بصمت حزين ثم لا تلبث سفاههم ان تتفل بتراخ ويأس :
- تفوه على العملاء الخونة .

.....

وفي صباح اليوم التالي ، دخلت قرينتنا كتيبة من جنود عجم اللسان ، بيض البزات « اعلنوا انهم موفدون لحماية السلام ولكنهم ما لبثوا ، بعد قليل ، ان بدأوا مهمة اخرى ، فراحوا يقيسون ويخططون ، ويقيمون في وسط القرية سورا من الاسلاك الشائكة سموه « خط الهدنة » .

وانقضت لعنة السلام الذي حملوه على بيتنا ، فمطره الخط المشؤم الى شطرين « واخذتني والدي نوبة من الرعب ، واستولى علينا احساس بان هؤلاء القرباء ، العجم اللسان ، البيض البزات ، انما يقطعون جسدينا بلا رحمة الى نصفين ، ويرمون باحدهما الى الكلاب لتنهشه على مرأى من النصف الثاني ، وخيل لنا ان بيتنا الحبيب نفسه قد تحول الى كائن اسطوري من لحم ودم ، وانه يصرخ مستغيثا بالقرباء مسترحما متضرعا ان ينقذوه من عذاب التمزيق ، وخيل لنا ان عظام امي التي ترقد في الحديقة عبر الاسلاك ، تستنجد هي الاخرى ، وتكاد تشب من حفرتها لتنفزز في عيونهم وجسدهم وافواههم ، ولتصفع وجوهنا بشوثة وحقي :

رفع يده في ظلام الغرفة ، وتطلع الى الساعة في معصمه ، فاذا عقاربها الفوسفورية تشير الى الثانية تماما بعد منتصف الليل .
اذن ، لقد اتم العقب الصغير البيطري دورته الخامسة المملة وما زال هو يحشد كل حواسه في اذنه ، ثم يلصقها بالجدار وينصت .

لعنة الله على هذا الجدار . لقد علموه - على ما يبدو - اللؤم والحقد والقسوة ، فصمم هذه الليلة الا يسمح لصوت ابيه ان يعبر الطين الصلب والحجارة ، لينصب كالعادة سعالا في اذنيه ، يطمئنه ان الشيخ المريض ما زال يعيش « وان باستطاعته هو ان يسترد سلطانه على اجفانه ويرتاح .

... ويتململ ابراهيم في فراشه ، وتراوده رغبة في ان ينقلب الى جانبه الايمن ، ولكنه يخشى ان تفسد عليه هذه الحركة عملية الرصد التي تستغرقه ، فيؤثر ان يظل على ظهره ، وان يستمر في الترقب والانتظار .

وتتحول اجفانه من جديد الى اسلاك من معدن جامد ، تنفرز ببلاهة وصمت في اسمنت السقف ، ومن خلال هذه الاسلاك تلوح له لحية ابيه بيضاء كخصلة من شعاع « تنمو وتنمو ، حتى تملأ الغرفة وتطرذ ما فيها من ظلام ووحشة ، ثم تغيب اللحية ، ويضيء الوجهه السمح ، ينهل من ملامحه شلال من الاسى والذكريات :

كنت في الرابعة عشرة عندما ودعنا . اذكر تماما وقفته على العتبة في غيش الفجر . كانت احدى يديه تحتضن بندقيته ، والاخرى تمسد ، بحنو ، شعري الاسود الاملس .

- انا ذاهب الى القدس يا ابراهيم لانضم الى اخواننا الذين يدافعون عنها « ووصيتي ان تعتني جيدا بامك .

ووضع اصبعيه الاوسطين عند اسفل ذقني ، ورفع رأسي اليه برفق ، وتابع وهو يصب نظراته المشجعة في عيني :

- لقد صرت شابا صغيرا ، وصار بامكاني ان اعتمد عليك . اليس كذلك ؟

وتهاكت من التأثر ، ولكن امي تظاهرت بريادة الجاش « امسكت دمعها بجلد عجيب حتى استدارت الي ، فاحتضنتني وانفجرت تبكي وتبكي « بسخاء غيمة شتوية في يوم عاصف ، شديد البرد .

وصارت اخباره تاتيها متقطعة مشوشة ، ولكنها كانت دائما تبعث فينا الزهو وتتناقلها الالسن في بيت صفاقا ، بكثير من الفخر والاعتزاز :

اليوم نصب ابو ابراهيم مع كتيبته كميننا للعدو في باب الواد فاصطادوا قبل ان يطلع الفجر خمسين خنزيرا صهيونيا .

اليوم نشبت في اللطرون معركة ضارية كان بطلها ابو ابراهيم . اليوم نسفت كتيبة من الجاهدين بقيادة « ابو ابراهيم » مستودعا للذخيرة في القدس الجديدة .

اليوم اصيب ابو ابراهيم بشظية قنبلة فيما كان يتصدى لقوة عدوة مصفحة ، ولكن اصابته كانت طفيفة .

... وظلت اخباره قوتنا اليومي الى ان ادركت النار المقدسة قرينتنا ، فانشغل اهلها بمعاركهم مع عصابات العدو ، وانشغلت انا ببندقيتي ، احملها فيملاني الاحساس بانني صرت ، كما قال والدي ، شابا صغيرا يمكن الاعتماد عليه .

خنافس مريضة ، او مجرد حشرات ، وان يزق زعفة واحدة ، فإذا مصفحاتهم ودباباتهم المرابطة عند اطراف القرية ، تتفكك اجزاء اجزاء ، وتبعثر هباء ، واذا بمدافعهم الجائمة على الهضاب المجاورة ، تنطرح عصي صبيان واقصاب رعاة .

او على الاقل ، لو اعطي قدرة التحول الى كائن غير مرئي ، لتسلل الى خنادقهم عبر الاسلاك ، فخنقهم واحدا واحدا ، وداس على جشهم وسارع الى غرفة ابيه وطار به الى اقرب مستشفى . وتوقفه من تخيلاته دقات « مهباج » تأتي من وراء الاسلاك لتخب في الصمت والظلام ورهبة الليل ، فتتسارع دقات قلبه ، ويجف ريقه ، ويشعر كأن يدا ظالمة عاتية قد اطبقت على عنقه بقسوة ، وراحت تستل اعصابه ، عصبيا بعد عصب .

وتستفيق فتحية بدورها على الدقات الحزينة التي تواضع ابناء بيت صفافا بشطريها على اعتمادها وسيلة للنمي ، وتساله بذعر :
- ابراهيم ... هل سمعت ؟
ويأتيها صوته متساحيا ذليلا ، مبللا بالدمع والحرقلة :
- اجل سمعت . لقد مات يا فتحية . لقد مات .

.....

وعند الظهيرة كان صفان من المشيعين يسيران كالعادة بصمت واطراق على جانبي « خط السلام » الذي حرم عليهما ان يلتقيا او ان يتبادلا حتى عبارات التعزية المألوفة . وكان هناك سور من بنادق عدوة ، لا تنفك تحملق في الوجوه الحزينة على الجانبين ، وترقب بحذر ما يشتعل في عيونها الصارمة من لهب الحقد والوعيد ، وما يلتمع فيها من تصميم وعزم . وكان ابراهيم يسير ثقيل الخطو ، مسمر الاجفان على الافق البعيد حيث يلوح له وجه ابيه فيخيل اليه ان الجرح في اعلى جبهته قد عاد ينزف بغزارة ، حتى ليبلل بالدم اعناق حامليه ، ثم يفيض هذا الدم ، وينساب في جداول ، لا تلبث ان تنظم في سيل جبار ، ينطلق هدارا عاليا ، فيجتاح سدود النل ، واسوار البنادق والشوك والكلاب .

احمد سويد

آخر منشورات دار الاداب

ق . ل

- اعياد (قصص) لعبد الله نيازي ٢٥٠
- لا بحر في بيروت)) لفادة السمان ٢٥٠
- الظما والينبوع)) لفاضل السباعي ٢٥٠
- حتى يبقى العشب اخضر لاديب نحوي ٢٠٠
- ثورة الفقراء لرجاء النقاش ٢٠٠
- سلطنة الظلام في مسقط وعمان لعوني مصطفى ١٥٠
- كامو والتمرد ترجمة سهيل ادريس ١٥٠
- قصص كامو ترجمة عائدة ادريس ٤٠٠
- البلد البعيد الذي تحب (قصص) لديزي الامير ٢٠٠

- قمحهم الله من جبناء .

ولم تكن جبناء ، فافتحننا السور الشائك ، ابي وانا ، لننقذ نصفنا من اشداق الكلاب ، وبيتنا من لعنة السلام ، وعظام امي من مهانة القرية والتدنيس ، ولكن الجنود الفرباء صدونا بعنف ، واحتجزتنا بنادقهم ، فيما استمروا هم يمزقون بيوت الجيران ، كما مزقوا بيتنا ، ويلقون باشلائها للكلاب التي تجثم هناك ، في الجهة الاخرى ، وتنتظر وراء الاسلاك .

وينشج ابراهيم بصوت عال ، فتساله زوجته بذعر ، وقسد استفافت على نشيجه :

- ابراهيم ... ما بك يا ابراهيم ؟

- لا شيء يا فتحية .

- بلى انك ما زلت تفكر فيه . سلم امرك وامره الله . لاننا لا نستطيع ان نفعل شيئا .

- وهذا الكابوس اللعين الذي يطبق على صدري ؟

- اطرده بآية الكرسي ، ولسوف تففو سريعا باذن الله

ولم يجب ابراهيم . ولم يقرأ آية الكرسي ، بل رفع معصمه وتطلع الى العقرب الفوسفوري بقلق وضيق .

انها الثالثة بعد منتصف الليل ، وابوه لم يسعل بعد :

سامحه الله . لقد اصّر ان يعيش في الزقة الثانية من بيتنا . وحين حاولت ان اقنعه بالبقاء هنا ، حدجني بنظرة عاتبة :

- كيف تريدني ان اتخلى عن قبر امك ، والجزء الاخر من بيتنا ، وكلاهما بعض من وجودي وشرفي وعرضي ؟

وتعانقنا . ولاول مرة رأته يبكي . كانت دموعه تخرج باستحياء وتتغلغل في لعينه الكثة تشفق على كبرياء رجولته ان تتجرح .

ومن يومها لم نعد نلتقي ابدا .

في النهار يقوم بيتنا سور من الاسلاك صار عمره الان ستة عشر عاما ، وسد من العيون الماكرة الشريرة لا تفنأ تراقب من وراء السور وتحاسب وتتجسس . وفي الليل يفصل بيتنا هذا الجدار الاخرس ، وبحر من البنادق والظلام والكراهية لا تعبره سوى الامنا واحلامنا المتبادلة .

.....

ونفقت بومة يبدو انها كانت تبيت في الخربة المجاورة فارتعش ابراهيم وتمتم :

- كفانا الله شرك يا فاجرة .

وحاول ان يطرد ، عينا ، تلك القيمة الكبيرة من الافكار السوداء التي اقتحمت رأسه ، وراحت تحوم في ذهنه ، وتنتشر ببطء واصرار ورعونة .

منذ خمسة ايام لم يعد ابوه يقتعد مكانه المعتاد عصر كل يوم ، بجانب حجرة المرحومة ، وكان قبل ذلك يراه هناك ، في اقصى الحديقة ، فيحبيه من بعيد ، خلسة ، ويتنمّن عن صحته باشارة مسروقة .

ولولا ابن جارتهم الحاجة سعدية ، لما عرف ان اباه مريض ، فلقد غامر الفتى وهمس له من وراء الحارس الخنزير ان حالة المريض ليست على ما يرام ، وان والدته الحاجة تعنى بامره ، ولكن بالقدر الذي يسمح به الزبانية .

وفي الليالي الاربعة السالفة كانت رسالة التنظيم تأتيه باستمرار ، ودونما انتظار طويل ، فتبدد قلقه كلما تكاثف ، اما هذه الليلة ، فانه ما زال ينتظر ، دون جدوى ، ان يسمع نامة الحياة من وراء هذا الجدار اللعين الذي علموه اللؤم والصفينة فقام حدا بينه وبين ابيه ، بين بيت صفافا وشقتها الاخر المحتل .

وتمنى بسذاجة او صار عملاقا جبارا ، يستطيع بما اوتيته من قوى خارقة ان يركل سور الاسلاك بقدمه فيتحول السور الى حفنة من رماد ، وان ينفخ في وجوه الاعداء نفخة بسيطة ، فيمسخهم السي